

الحركة التونسية
في تربية الاطفال الموسيقية

بفلم الدكتور صالح المصطفى

يبدأ اتصال الانسان بالموسيقى وهو لا يزال جنيا في بطن امه من خلال ما يقام لهذه الام من حفلات غنائية صوفية بمناسبة حملها اذ اثبت العلم الحديث ان الجنين يستمع ويستمتع بما يسمعه من العالم الخارجي فمن ذلك الصندوق الاظلم الذي يعيش فيه وياخذ من الاشهر الاولى لبداية حياته في استيعاب ما يسمعه ومن تلك الفتوات وهكذا يبدأ معركة الحياة للاستفادة منها والاستعداد لخوض غمارها .

وما ان ينزل الى هذه الدنيا حتى يعبر بصيخته الاولى عما ينتظره من عمل رؤوب وكفاح مستمر لضمان الحياة الكريمة والمشاركة بحقوقه في بناء صرح التطور الحضاري حتى يعيش هو واحفاده عيشة راضية وقد طوع فيها الطبيعة لمصلحته ومصلحة بني جنسه مستفيدا في ذلك مما ساهم به الاولون وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

يدخل الجنين هذه الحياة كما بينا مبتدأ بصيخته فيسمع الى صداها المتمثل في زغاريد النسوة وازا الطبيعة تضي عليه من لطفها وجمالها ما يجعله يتعلق بها فتنسيه الام الكفاح المستمر وعناء التعلم الدائب ليتعلق بانوارها الخلابه التي تبرز في السماء؛ وتنوع الوان الزهور والحيوانات التي تشجيه اصواتها ، واول صوت يتعشقه هو صوت امه حين تنأيه ويتيه فيه بما يشغله حتى عن الوجود ثم تاخذ هذه الام في تطوير احساسه بالحياة وبالجمال بمناعاتها التي تعلمه الصوت المصحوب بايقاع وما اكبر فرحة الاسرة حين تلاحظ ان هذا الابن اصبح قادرا على محاكاة امه بالنفثته على حرفين او ثلاث ((اغ)) او ((اغه)) معبرا عن ايقاع ثنائي او رباعي او حتى ثلاثي ومحركا على ذلك يديه ورجليه للتعبير عن الفرحة اثر صحوه من النوم او استكمال له للرضاع .

وما ان يصل الى الشهر السادس من عمره حتى تنمي امه مداركه بتلقينه الاغنية الاولى التي يتعرف من خلالها على قدرة الطيور على الطيران الذي يعينها على الفرار من كل مزاحم مخطر على عيشها الرغيد كما تطور فيه احساسه بالايقاع ويبدأ بتطبيقه بكلتا يديه وبعض اصابعه تختم برفع اليدين للذلالة على حركة الطيران العجيبة (هنا هنا هنا هنا هنا)
تعوم في الماء جاء الفكرون يشرب - قالت الحمامة فر . . .)

ويشعر الطفل بالطمانينة سواء عند ترقيصه على ايقاع اسم ((الله)) جل جلاله او عند ارقاده على لحن اغنيته الاولى التي يختلف مقامها باختلاف الحضارات واللغات وحتى بين اقطار الشعب الواحد واذ كانت في العراق على مقام المدي فهى في تونس على مقام مجبر السيكاه او النهاوند المرصع (نني نني جاك النوم يا خديد بوقرعون) وقد انتج على غرارها الشيخ خميس الترنان من نظم الاستاذ الهادى العبيدى ((نني اهني منام)) في مقام الكردى وربما يكون من الفائدة بمكان هام ان تقوم احدى مؤسساتنا الثقافية العربية بجمع اغاني هذه الفترة من الطفولة في كل الاقطار العربية وتسجلها على اسطوانات او كاسات لابرار مدى تقارب الانسان العربي حتى ولو ابتعد موطن الولادة من مثل اغنيته الاولى التي يحاول فيها ضرب الايقاع بالاكف (تيته تيته تيته - بابا جاب حويته . .) والاغنية الموقعة التي يتعلم بها كيف يفرق بين الطيور وغيرها من الحيوانات (جر الطوب رد الطوب طار حمام) واغنية دبب الفار ، الى ان يدرك الحياة ويخرج مع اترابه للزقاق فيساهم معهم في طلب الفيث وهم يحملون دمية يمرون بها على البيوت ليصب عليها الماء تفاعلاً باستجابة المولى جل جلاله لطلبهم وهم يغنون (امي طنقويا نساء طلبت ربي ع الشتاء طلب ربي لا يخيبها . . الخ) واذ ما تكاثر الفيث وامتلات الارض والخزانات فانهم يغنون لطلب رجوع الشمس والتعجيل بالربيع (يامي عويشة زرق الشميسة وليداتك ماتو بالبرد - نر عليهم شوية ورد) وهكذا الى ان يذهب الطفل الى الكتاب لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة وتذهب البنت الى دار المعلمة حيث تزيد على التعلم المذكور اتقان شؤون المنزل والخياطة والتطريز في جو ملؤه المرح والغناء الجماعي ، والفينا في تونس وقفا يمنح كلا من المؤدب والمعلمة والتلاميذ قدرا من المال بمناسبة المولد النبوى الشريف مقابل قيامهم بغناء كل من الهمزية والبردة للشيخ البصيرى في النصف ساعة الاخير من دوامهم من اول يوم من شهر ربيع الاول الى انتهاء الاسبوع الثاني منه .

وبعد استقلال تونس تكثفت دور رياض الاطفال وعم التعليم الابتدائي ودور الشباب مثل اغلب الاقطار العربية وانتجت مجموعات من الاناشيد التي تعين الطفل على اقتحام الحياة في جو مفرح من ذلك الاغنية التي يتعلم بها الحساب من الواحد للمائة (انظر المثال رقم 1) واغنية اول درس موسيقى يتعرف بها على الخمس درجات الاولى للسلم ويمكن من اصواتها وقد ترجمت للفرنسية والانكليزية واحرزت نجاحا باهرا في المؤتمر الدولي للتربية الموسيقية بلوزان بسويسرا في الستينات (المثال رقم 2) ولنا ايضا اغنية يتعرف بها

الطفل على اسماء الاشهر العربية وهو يغني (المثال رقم 3) كما انتجنا مجموعة اناشيد طبقتنا عليها اهم المقامات والايقاعات العربية لدعم اصالة الطفل واعداده للدروس الموسيقية في كلمات تركز الاخلاق الحميدة وحب الوطن العربي ككل والاعتزاز بالانتساب اليه والى الحضارة العربية الاسلامية المجيدة وغرس المبدأ الذي جاء به الحديث الشريف (لا يكون احدكم مؤمنا حتى يحب لآخيه ما يحبه لنفسه) ومن هذه الاناشيد : 1 - نشيد عيد الامهات تاليف العربي المرحوم احمد المختار الوزير وقد لحنه في مقام الحجاز على ايقاع الدارج الثلاثي (المثال رقم 4) 2 - نشيد حب الوالدين والعلم لنفس المؤلف وقد لحنه في مقام البياتي على ايقاع الوحدة (المثال رقم 5) 3 - نشيد الترحيب في الروضة وقد لحنه في مقام محير السيكاه المقابل للنهاوند على درجة الدوكاه (المثال لا رقم 6) 4 - نشيد عيد الجنى لنفس المؤلف وقد لحنه على مقام النكريز (المثال رقم 7) 5 - ولنفس المؤلف نشيد (تاج العدل) وقد لحنه على المقام الخماسي ذي الاصل الافريقي المعروف في تونس (برصد عبدي) وفي المغرب (برصد كناوي) وهو من تراث المغرب العربي والانديس (المثال رقم 8) 6 - وللاستاذ احمد المختار الوزير ايضا نشيد (ارجوحة العصيد) وقد ركزنا تلحينه على المقام العربي المعروف بتونس (بالعراق) وهو من تراث المغرب العربي والانديس (المثال رقم 9) 7 - نشيد (الغاب) للعربي الاستاذ المرحوم ابي الحسن بن شعبان وقد لحنه على مقام السيكاه هزام وايقاع الديك (المثال 10) 8 - نشيد (الاتقان) للمؤلف السابق وقد لحنه على النهاوند وعلى النوا مع ترصيعه بمقام السيكاه على نفس الدرجة (المثال 11) 9 - نشيد (الملتقى) لنفس المؤلف وقد لحنه على مقام الحجاز (المثال 12) - 10 - ومن اناشيد ابي القاسم الشابي لحننا (الصباح الجديد) على مقام الكردى وايقاع (الاقصاق) ذي التسع وحدات (المثال 23) 11 - واخيرا نشيد العروبة من تاليف الشيخ الطاهر القصار وقد كنا لحنه في مقام العجم عشيران بمناسبة الذكرى السنوية لتاسيس جامعة الدول العربية (المثال 14) .

فهذه باقة صغيرة مما انتجناه من اناشيد الاطفال والشباب نساهم بها في ذكرى استاذنا المرحوم الشيخ خميس ترنان الذي كان له دور ايجابي في تركيز التربية الموسيقية حيث كان له الدور الاساسي في تدوين التراث الموسيقي التونسي وفي ضبط مقاماته وايقاعاته من خلال جلسات اللجنة الوطنية للموسيقى التي سجلنا كل مداولاتها والتسجيل ابقيناه

بـخـزينة ادارة الموسيقى التي تحولت للمعهد العالي للموسيقى .

وكذلك في ضبط برامج التعليم الموسيقي سواء بالمدارس الثانوية او بالمعاهد المتخصصة وقد ساهم في الانتاج للاطفال بنشيد من نظم الشيخ الباجي المسعودي
" حيا نسيمك حتى كار يحييني

يا تونس الانس يا خضرا الميادين

وقد لحنه في مقام السيكاه في اللهجة التونسية وعلى وزن الخفيف الذي هو من الموازين المستعملة في النوبة بتونس والمغرب وقد اثبتناه عن اذنه في الجزء الاول من كتابنا اصول الموسيقى يدرس بالمعاهد الثانوية - وتخليدا لهذه الذكرى سيصدر لنا كتاب لانشيد الاطفال والشباب بدار النشر " اليف " وهي من تاليف ثلة من خيرة ادبائنا مثل الاساتذة = بلحسن بن شعبان - واحمد المختار الوزير والطاهر القصار وعلي النيفر وسعيد ابوبكر واحمد خير الدين وجلال الدين النقاش وعبد العزيز الحاج الطيب ومحمود بورقيبة وغيرهم . وسيقدم الاركستر السنفوني مجموعة منها في احدى حفلاته بهذا الموسم بقيادة الاخ الاستاذ احمد عاشور .

ولربما يكون من المفيد ان وزارة الشؤون الثقافية ووزارة الشباب والرياضة تنظم مباريات سنوية في التاليف والتلحين لاغاني الاطفال والشباب على مقامات وايقاعات عربية اصيلة لترد بها على فئة من المنتجين تمكن منهم الاستعمار وتغلغل في نفوسهم وصاروا يعتقدون بذلك ان هذا النوع من الاغاني لا يكون الا على المقامات الغربية نرجو لهم المغفرة مع الاقلاع والله يوفقنا جميعا لما فيه خير شبابنا حتى يعتز باصالته ويا نتمائه لحضارتنا العربية الاسلامية .

وكان الله في عون الجميع

والسلام .

الدكتور صالح المهدي